

صوناتة الفيولونسيل والبيانو

obeikandi.com

صوناتة الفيولونسيل والبيانو مصنف ٦٩، مقام لا كبير

شاءت الظروف أن أؤجل تقديم صوناتات الفيولونسيل إلى هذه الساعة المتأخرة في عرضى لأعمال بيتهوفن، مع أن خمس الصوناتات التى كتبها للبيانو والفيولونسيل، وثلاث المجموعات لتنوعات على الحان لهيندل وموزار ما فتئت تعتبر في صدارة الأعمال التى تؤلف برامج عازفى هذه الآلة الفخيمة التى أصفها بينى وبين نفسى بذات الجلال، كما أسمى الفيولينة: ذات الدلال.

ومؤلفات بيتهوفن للبيانو والآلات الوترية تابعت ثلاثة خطوط: أعمال للفيولينة والبيانو، وأعمال للفيولونسيل والبيانو، وأعمال البيانو والفيولينة والفيولونسيل (وهذه الأخيرة هى المعروفة بثلاثيات البيانو). وكان لبيتهوفن فى كل خط من تلك الخطوط أثر المجددين: فتقدم بأعمال الفيولينة والبيانو خطوات عن موزار وصنع للفيولونسيل ما لم يصنعه لا موزار ولا هايدن. وحرر فى الثلاثيات كلا من الآلتين الوتريتين من هيمنة البيانو.

وعشر صوناتات للفيولينة والبيانو لا يستغنى عنها عازف، طالباً، أو هاوياً، أو محترفاً صناعاً. وهى تمثل كلها حواراً بين أنداد من عازفى البيانو والفيولينة: قدمت منها هنا أشهرها: الكرويتزر مقام لا، وهى التاسعة والدومينور المهداة لقيصر روسيا، وهى السابعة، ثم الأخيرة وهى العاشرة، التى توصف بالباستورال، فالصوناتة الثالثة كنموذج من مؤلفات الحقبة الأولى.

ولم يعد بيتهوفن لتأليف صوناتات البيانو والفيولينة بعد أن انتهى من العاشرة عام ١٨١٢.

أما صوناتات الفيولونسيل الخمسة فقد امتد تأليفها إلى مدى أطول: ألف الأولى والثانية خلال زيارتين لبرلين عام ١٧٩٦، فهما من مؤلفات الحقبة الأولى.

ثم ألف الثالثة، وهو في أوج عظمته، إبان الحقبة الإبداعية الثانية، ١٨٠٨، وهى الصوناتة موضوع هذا الحديث.

أما الرابعة والخامسة فقد ألفهما سنة ١٨١٥، أى أن صوناتات الفيولونسيل الخمس يمتد تأليفها على الحقبات الإبداعية الثلاث، وعلى مدى عشرين عاماً، من سنة ١٧٩٦، وبيتهوفن فى السادسة والعشرين، حتى بلوغه سن الخامسة والأربعين.

وقع اختيارى على الصوناتة الثالثة للبيانو والفيولونسيل، مقام لا فى الديوان الكبير، لأنها أجمل الخمسة وأكملها، أهداها بيتهوفن إلى صديقه البارون فون جلايخنشتاين. وهى وإن ألفت فى ظروف سعيدة، فقد تأخر تقديم النسخة المطبوعة الأولى لهذا الصديق، إلى ما بعد غزو نابليون لإمبراطورية النمسا والمجر، واحتلال الجيش الفرنسى لقينا. وبعد انتهاء الحرب، وعودة الأحوال الطبيعية، تلقى بيتهوفن من الناشرين الألمان «برايتكوف وهيرتل» المؤلفات التى كان قد أرسلها قبل الحرب لتتسخ كليشهايتها وتطبع، ومن أهمها صوناتة الفيولونسيل والبيانو مصنف رقم ٦٩ مقام لا كبير. فأضاف بيتهوفن بخط يده على الاهداء هذه الكلمات In-ter lacrymas et luctum أى «وسط الدموع والأحزان». ولا نعرف إن كان بيتهوفن عنى بهذه الجملة ما قاساه فى أثناء الحرب وحصار فينا، أم أنه يقصد المصاب الجلل الذى نزل بفن الموسيقى فى شخص عظيم من عظمائها، ألا وهو يوزف هايدن.

ففى ٢٦ مايو من عام ١٨٠٩ لم يتحمل قلب هايدن الشيخ ما حل ببلاده وقد أحس أصحابه وخلانه بان النهاية قريبة، وتحامل هايدن على نفسه وجلس إلى الهاربسيكورد لينشد بصوت الشيخ الفانى كلمات النشيد الوطنى الذى لحنه لبلاده ومليكه، وهو النشيد الذى يردد: ليحم الرب الإمبراطور فرانسيس.

وحمله الخلان من أمام الهاربسيكورد إلى سريره، فلم يفارقه حتى إذا ما انتصف ليل ٣١ مايو من عام ١٨٠٩ أسلم الروح يوزف هايدن، أبو السمفونية والرابعة التورية.

والصوناتة التى أقدم ألفت قبل الحرب واحتلال فرنسا لفينا، حينما كان بيتهوثن هائناً بنجاحه وتوفيقه. فقد ألف فى ذلك الوقت سمفونياته الرابعة والخامسة والباستورال، وكان كونشرتو البيانو المعروف بالإمبراطور ضمن رصيده من الروائع.

كان مطمئناً إلى معاشه عندما قرر أصدقاؤه النبلاء فيما بينهم أن يتكفلوا لبيتهوثن بمعاش سنوى قدره ٤٠٠٠ فلورين، تحمل الأرشيذوق رودلف منه مبلغ ١٥٠٠ فلورين، والأمير كنسكى ١٧٠٠ والبرنس لوبكوفتش ٧٠٠ فلورين.

فلنستمع إلى قسم العرض، ويتألف من اللحنين الأساسيين تصل بينها معبرة تمثل فى ذاتها لحناً ثالثاً. ويصف السير أرنست ووكر E. Walker هذه الحركة بالوقار اللامع. ثم نسمع قسم التفاعل، ويعتمد فى أكثر على اللحن الأساسى الأول.

وأخيراً نعود إلى الألحان الأساسية فيما يعرف بقسم إعادة العرض، مع ملاحظة «الكودا» الهامة التى تختتم بها الحركة.

الحركة الثانية:

نموذج من أحسن ما يقدم لاسكرتسوات بيتهوثن. انتقل فيه الموسيقى إلى مقام لا في الديوان الصغير، وكانت الحركة الأولى في الديوان الكبير. يرى السير أرنست ووكر في هذا الإسكربتسو لمحة من الشراسة، لا تخلو من بعض الخفة، وأرى فيه روح المرح والدعابة الناشفة، ما أبعدنا فيها عن الاسكربتسوات العاصفة الغاضبة.

الحركة الثالثة:

تبدأ «بأداجيلو كانتابيلي» قصير، في المقام الخامس من لا أى مقام مى. ويبدى أرنست إعجابه بهذا الأداجيلو، وهو يتحول في منتهاه ببراعة متناهية إلى مقام لا كبير، وتتحول الحركة إلى «الليجروفيقاتشى»، وهذه حركة جميلة، صيغت في قالب الصوناتة، يغلب عليها اللحن الأساسى الأول، وهو من الألحان التى عدها روبرت شافلر من الموسيقى الجذرية في مؤلفات بيتهوثن.

Allegro ma non tante - Scherzo (Allegro molto) - Adagio cantabile;
Allegro vivace.